لَـــــيَـــــاح
فِداء محمدالكومي

لقيته بِلِيَاحٍ: لقيته عند
العصر والشَّمسُ بيضاءُ.

وأبيضُ لَيَاحٌ :ناصَعٌ.

بَيّضَاءُ آنِسةُ الحَديثِ كَأنَها
قَمرٌ تَوسَط جُنحَ لَيلٍ مُبردِ

مَوسُومةٌ بالحُسنِ ذَاتَ حواسِدٍ
إنَّ الحِسَان مَظنَةٌ للحَاسِدِ

-إبن بشير

مُقدِمةَ

حِينَ بدَا مِنا ما بَدا

لمّ تَكن هُناكَ مُقدمات
حَتى الحَياة
لا مُقدماتَ لها.

ووسط صيحات الفرح،
نداء أسماء الخريجات،
وبهاء الابتسامات،
وبعض الرقصات،
أحيا بك أنا
وأرقص مع خياالك
أطرب لبسمتك
واشتاق لقيا عينك
ابحث عنك بشغف وبولع
بحب متقن الصنعه
دقيق الوصف
رهيف الاحساس.

سأظل أرتجف عند كل مرة القاك فيها،
وستظل عبرتي نختنق
عند رؤية عيناك،
حين يفيض شوقي ،
وتفيض الكأس عند إمتلئها
وانا كلي ممتلئ بك.

كم نحنُ لا نتعلم..
أعاود القراءة بما كان بيننا
حين كنا صادقين
فأبكي
متى أستطيع أن أهجم على دمعي؟
فأقلب الأية وأكبته؟
إلى متى سأبكي
بعد ردح من الزمان
وعباب الأيام على ذكراك
ونسيانك بشكل كبير
عانى فؤادي عامين في المخاض
حتى يخرجك من رحم المحبة
يقطع العقد
حتى يخرجك
وحسب القلادة ما أحاطت بالعنق
إن كان ذكراك سيصنع بي كل ذلك
حسبي بحديثك
ماذا سيحدث إن عاودت سماعك وأنت تتنهد؟
حين كنت صادقًا في كل حرف
وصادقًا في حبك واحساسك.

خانة
الرسائل المميز بنجمة
ضغطها
ودخلت أقرأ
ما ميزت من بين ألوف الرسائل والبرديات
٩٨ رسالة منك
وحدك!
تصور!

أحتفظ بالذكريات،
أزعم أنني أحبها وسأعود إليها،
زعمي صحيح،
أحبها ،
لكنني لا أحتمل العودة إليها في كل مره،
فأدق كل مرةً خشبةً على بابها،
حتى يستعصي علي كسرها وأبكي بحذق.

ذات يومٍ عندمَا عزّ اللقاء،
كانت في العين دمعة
وفي الاحرف غُصّة
وفي القلب ندبة
وفي الروح طعنة.

تمر عليها ذكرى وفاة والدها،
فتكسرني، ولم أكن ابنته،
تكسرني الدمعة المتأرجحه،
وتكسرني البسمة الباكية
يخترقني ... الدعاء الناحب.

آسى على اللحظة الأخيرة،
قبل وقتها،
يمر الشريط في عقلي،
سريعًا،
والوقت يمضي
وأنا أفتش بين أكوام الذكريات
لعلني أجد الضماد
فقد قلدني الأسى.

توقف الزمان لبرهه،
طالت ولم أتقدم في العمر،
كُل ما كان يتقدم هو الوقت.

كُنت على ضِفاف نهر الشوق،
أترقب قاربَ وصلك،
لتصحبني معك،
إلى بستان الحياة،
فقد هتك برد الإنطفاء سِتر قوتي،
وأطاحت رياح اليأس وشاح الأمل المُرقع،
وتساقطت أوراق حُبي تِباعًا،
وكنتَ آخرها.

حُبكَ شاغلي،
ملهني مُتعبي،
فارقي عن الصحاب،
راحلاً بي عن الأهل،
عائدًا إليك بلا مِلال.

يراودني عني الكرى،
فأبى شوقّاإليك،
أعود لصوتك،
حنايا بسمتك،
لطف حديثك،
أشتاقك أشتاااقك أشتاقك.

عد فالإياب جميل
حلو لذيذ
بهي ينشر العطر الأريج
عد والتفت
اشح بالنظر واختلس بحذر
عد لذكرياتٍ أبكيتنا
أجهشتنا أحرقتنا
.

وتخبرني ان اعود الى الذكريات
أدسُ راسي بوسادتي
خجلا منك،
لم أخبرك .. آسى عليك من التوجد
ليتني آسى على نفسي قبل ان آسى عليك،
أوما علمت؟
كيف أرقد تحت ركام الذكريات،
يدي ترتجف وقلبي ينوح!
أوما علمت؟
الآن أدس رأسي باكية،
أكتم دمعي النازف،
وجرحي المفتوقُ شوقًا إليك.

أتوهم،
أنك تُحس بي،
أعتقد وأتصور،
وحين أخبرك أُحس
تقول لي لا تحسين،
أأنت واثق؟
تزعم أننا كما نحن،
ونحنُ لسنا نحن!

الأمل معطفي البالي،
أُرقعه إن سنح لي الوقت،
أمزقهُ تارةً أخرى ولا بأس،
أرتديه، ألبسه كل من أراه في الطريق،
فيعود أجمل،
برد اليأس تكاد تُطفئ شمعة الصبر الأخيرة
ذات الفتيل المحترق
والنفس الأخير ذوباني فيه،
لكنني لا أريد الأمل،
بل أصنعه للمارين،
وأنا هُنا في بيت الحنين أجلس،
فما حاجتي له،
أعيره المارين في ازقة الحياة،
ويكاد يعيرني المار في الرواق،
لكنني أطفئ حزنه ببسمة شاحبة،
وشفتان بالكاد ترتفع،
لكنه يقنع بالقليل،
فيخبروني " كما تودين، أتريدين شاي؟*

أريد لقاء حبيبي يا صاحب الشاي والمعطف الطويل،
يا ساقي الورد هل مر لي رفيق؟
يا بائع الحلوى هل رأيت حبيب؟
يا بيت الحنين هل مازلتَ تُبنى؟
ياريح الهجر أما زلتِ قادمه؟
إلى متى ستضيعين بين الأسئلة؟
وتحشرين بين نقطة حرف وإلتواء أخر،
وانتِ النفس الأخير فيك .. كاد ينفد..
فتغفين على حرف الواو،
عجزًا منكِ عن الوصول للام.
وصال.

أشتاق سِرًا وأخشى البوح،
أخشى ألاّ تشتاق كما أشتاق،
أخشى أنني في الوجدُ وحدي أكابد،
عناء صمتك.

ويدق قلبي دقتان،
شوقًا إليك دقة،
ولهفًا عليك صرخة.

أراقبها بصمت
يذوب فيها
يمتزج
يخفف لونها
ويزيدها
لكنها صامدًا على بؤسٍ تعلم أنها
لا تقوى على مجابهته
قهوتي الباردة
كبرود أحدهم
من ذاب فيه مُتأملاً أنا
ومن ذاب فيها مُرغمًا الثلج العظيم
المتماسك الصلب
يذوب فيها غصبًا فيزيدها مياعة
وينقص لذاتها.

وأعود
أنتزع خاتمي وأسورتي
كما انتزعك كل يومٍ مني
فأعيدك في صباح التالي
للتو حادثتك
لكنني لم أنتهِ بعد في التفكير بك
أمتلئ بشوقٍ
لو صُب على الرواسي لأنحنت شوقًا
للناس أشغالٌ وحبكَ شاغلي.

ليلة قمرية،
يكتمل فيه البدر،
تحت وطأة الضجيج،
وفيض الشعور،
وصراخ اللعب،
وبكاء الأطفال،
وحديث الكبار،
أهيم .... إلى القمر

بعد إنغلاقة الباب الأخيرة،
وإرتفاع الصوت النهائي،
تمزق قلبي،
وتفتت عظم صدري،
وجفلت مشاعري،
ورأيت دمعة تتلألأ في عينيها،
ثم حان دوري كي أبكي،
كي أنزف الدموع لا أريقها،
جُلنار..وهل ينفع الندم بعد فوات الأوان؟
وموت ضمير الزمان؟
وبكاء الأيام؟
هل يجدي ذاك نفعا؟
عند جفاف أوراق العمر.

أطفأ الحُزن بريق إبتسامتهم،
توارت لألأت أعينهم خلف الجفون،
تشققت شفاههم تأوهًا،
وأحدودبت ظهورهم
التي باتت مهبط كُل همٍ وكدر.

بفكري المبعثر،
قررت أن أذهب إلى صور الألبوم،
وأفتحها صورة صورة،
ساعةٌ كاملة كُنت أسترجع ذكرياتٍ رائعة،
وأخرى كاد قلبي يُفتق لها،
لكنني في تحدٍ متى ماتبلدت أمام هذه الذكريات،
وجدت رسالةً بخط يد،
يد أحب أن أمسكها،
أذكر دفأها كثيرًا،
من وضعت أسس الصُحبة في فؤادي،
ثم قضى الله قدرًا ألا نجتمع،
قرأت رسالة الشجون تلك،
تكتب لي بيتًا،
فأبكي على قلبي وعليّ،
ثم أعلم أنها جلدة،
ولا بد أن أتجلد لجلادة البيت،
يقول :
أراك عصي الدمع شيمتك الصبرُ
أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ؟
بلا أنا مُشتاقٌ وعندي لوعةٌ
ولكن مِثلي لا يُذاع لهُ سِرُ.

دقت رسالتُك نواقيس قلبي،
واهتز عرش اوردتي بدمِها،
فتحشرجت دموعي إلى محجريهما،
أكاد من فرط حرارتها أنصهر،
أعجبك الإياب؟
أم أنك ضللت الطريق،
وتتودد إلي كي أوصلك!

عُدت إلى مذكرتي في الأجازة،
فرأيت تناقض الجملة والجملتين،
يعز علي أن أبكي على نفس لا تستحق
يعز علي البكاء.

جدتي دمعك على كتفي كالحديد المنصهر،
تنصهر دموعي ريثما اكتب،
قد كتمتها عنكِ حتى كدتُ أموت،
سامحي قلبي ياجدتي.

أمسك طرف رداءكِ بشدة،
بحسرة وبكاء،
بتفتت بين الضلوع
واخشى أن يصدر قلبي صوت أنّه
أو أن تسقط من عيني دمعه.

خلف ستارتين،
أجلس،
كيف تتوارى دمعتي،
وكيف يُكتم صوتي،
أبكي، متى سيأتي اليوم الذي لا أحس فيه؟
كي أنتهي من معانة الشهقة والشهقتين
والدمعة والدمعتين.

طريقٌ طويل،
طويلٌ جدًا، لا يعرف الصمت،
تسير عليه الذكريات
تدق نواقيسها بغير هدوء،
يدق على إثرها قلبي دقة إرتياع.

لم تغرب الشمس بعد،
يتضح لنا جزء من قُرصها الصغير،
في الطائرة بجوار الجناح الأيمن،
أراقب الغروب،
تجردت له من كل أسلحتي،
أعلنت أنني سأفضي له بدمعي،
رأيت الغيوم تغطي الشمس،
وكأنها تنبهني، أستري أحزانكِ،
والشمس تُخبرني لا تحزني من حزن يظللكِ،
دعي أشعتكِ تشع في أرجاء المعمورة،
أُغربي بهدوء حين يحين وقت غروبك
ولا تكترثي لكثرة الناظرين،
الراحلين،
العابثين،
المؤملين،
كوني كما تكونين.

أخبر كتابي،
عن رحيلك،
أخبر روحي عن إبتعادك،
كنت ملاذي الآمن،
والآن
ككل شيء جميل سترحل،
ككل شيء محبوبٍ ستقفر،
أدبرت عني ياحبيبي؟
فأين لقلبي بعدك الإطمئنان؟!

أُضيأت الأنوار،
ونور قلبي لازال مُطفَأ،
شمعة أملي الوحيدة ماتت إحتراقًا،
متى تعود متى نعود؟
أترى نعود؟

أمضي وحيدةً،
أحتضن رجفتي،
أدفئ أحرفي،
أضمد جراحي بأسطري،
كم أرهقني الترحال.

وأما الفِراق يا رفيقتي هو فراق الأجساد،
تبقى الأَرواح متصلةً ببعضها
برابطة قلبية لا يستطيع المنطق تفسيرها،
وأما فؤادي يا جُل الفؤاد،
فقد مات شوقًا إليك منذ هذه اللحظة،
تتشبث كل دمعة بذكرى من ذكرياتنا،
ويدق قلبي لهفًا إلى لقياكِ،
قضاءٌ في هذه الدنيا وقدر،
أن نفترق بعد عناء اللقاء،
وأقول ياالله راضية بما كتبت وقسمت،
وصابرة على رحيل زهرة أيامي،
ورفيقة روحي ومؤنسة دراستي،
لن تصلكِ شهقتي وأنا أكتب،
ولن تسمع أنين روحي حين أفكر،
ولن تشعري بحرارة دمعي كالحديد المنصهر،
لكن ثقي أنني كنتُ ولازلتُ أحب تفاصيلك
بل أهواها حد الحرب والدفاع عنك،
ها أنا اليوم أقف.. على أعتاب مشاعري أودعكِ،
لكنني سأعدكِ أن نلتقي دائمًا،

وأثبت لكِ أن الرفقة بالروح .. لا بالحديث والجسد،
أتمنى أن لا تسمعي أو تشعري بقلبي الذي يتفطر
وروحي التي ترتعد،
أركب الطائرة إلى أرض الوطن،
وأنا في قمة الإغتراب عن روحي حين رحلتِ،
لن أقول ودعًا حبيبة قلبي
بل إلى لقاءٍ في حديقة غناء،
وكوب قهوةٍ سوداء ،
وحديث أنقياء،
إلى اللقاء ياروحًا سكنت جوار روحي،
فآنست وحشتي وآزالت غبار الأيام والأحزان عني،
لن أكف عن مراسلتك،
ولكنني أفرغ مرارة الآلم والوهن في أحرفي،
أكتم في صدري،
علني يوم الفراق لا أبكي،
وأن تصمت دموعي،
وأن تبقى صداقتنا سِرًا بيننا أخفيه،
وبين ضلوعي أحميه،
وبروحي أرويه.

توارى القمر في السماء الدنيا،
وأنت تسطع في سماء روحي
بلا توقف.

مابين لقاء بعد اشتياق
ووداع قبل اشتيااق
اتأرجح بدمعة
هل كبرت؟

ماعُدت أعرف الحُزن ولا الخوف عليك،
أراك وأرى الشوق ينساب مني،
بركان قد هدأت حممه،
وحممي هي أشواقي،
وأنتَ نورسٌ حلق فوقه فأحرتق،
ماعدت أسمع صوتك يهز عرشي،
ونعش ذكراك دق نواقيس الرحيل،
لا تتصور،
كيف عم الهدوء حين خرجت مني،
حين أخرجتك بإرادتي،
حين بِت خُردة،
لا تتحدث معي ولا تسأل عني،
وأنا كلما تصدأ أحبك،
الآن كرهتك وأنتَ تلمع كالماس أمام عيني،
لا يلفتني القمر،
تُلفتني النجوم،
يلفتني أنا، كنتُ نجمة في السماء،
فأكتشفت أنني أنا السماء وأنتَ جُزء مني،
وها أنا، أبتِرك، من داخلي،
بتر متعرض لحادث سير لايشعر بأطرافه،
بلا مُخدرٍ ولا أدنى ألم، بترتُك.

أخبرني يا أنيس روحي،
أولعك الحنين؟
هاج بك وماج؟
أتى بك لبابي لتطرقه؟
أتعلم أنك الهاجر المحبب
المجُرم المقرب
السارق الباهي؟
أسألك لما تحن؟
فتقول بكل فتنة
لكل شيء معك
لم أرد، وسع فرحي الأرض والسماء
وقلبي يدق متهافتًا
كم أحبك كم أحبك.

أعيدني إليك،
حين كنا نخرج سويا بلا تخطيط،
نصلي العيد سويا،
نرتب ارواحنا ونهذبها بالحديث سويا،
كنا سويا سويا بلا افتراق،
آن؟ آن ياكل الأحلام؟
ان تسل الحياة سيوف الحزن علينا؟

تخبرينني أنني دائما في بالك،
ماذا أخبرك؟
عن شوقٍ ينمو كل يوم
بل ويزداد حين أراك
شوقٌ للحظة لقاء طويلة
حديث بلا انتهاء
مواقف بلا توقف
الكثيير الكثير
ماذا تحملين؟
هل في جعبة الشوق كشوقي؟
أجزم أنني أحملكِ داخلي إشتياقًا،
ذكراك وملامحك وعيناك وحديثك وتسميعك وبهاؤكِ،
ستفيض كأسي عند امتلئها،
لكن إن لاح الشوق بالله عليك
كيف المرء يُخفيه؟

إعذرني يا فتى مر على أحرفي،
إلتمس لي السبعين عُذرًا ثم أضف عليها ماستطعت،
عُدت لمأواي الخاص،
عُدتُ لأحرفي حبيبتي وسر بسمتي،
لم أُمسك القلم لمدةٍ طويلة
كُنت أكتب الرسائل
وأضعها في بريد الأماني
لشخصٍ يطول الوقت ولا يقرأ
يمضي الزمان على الزمان
وهو لازال يخبرني بأنهُ يشتاق
لكنه لا يبذل سُبل الإشتياق،
لم أعبث بفرشاتي مُنذ زمن
نثرت الدُنيا لألئ دمعها على قلبي
فندى وصدأ حتى لم أكد أحس.

أهلا أيها الوهن،
مرحبا بك وسعدا في بيتك
لست غريبا هذا منزلك
هؤلاء أهلك
نفسي وعقلي وروحي
فللتفضل
أأشكو لك أم أتيت تشكو لي؟

تخبرينني أني الاخت الكبرى
ثم من قال لك انني كُبرى
اريد من هو اكبر مني
يركض خلفي
يلم شعثي.

حينَ يولعني الحنين،
أخشى أن أستعيد الذكريات
فأعلق في الماضي
وحاضري لا يسمح لي بالتأخر ثانية،
هكذا عالمنا الآن،
أُوقد شمعتي القديمة،
ذات الرائحة العتيقة
لم يبقَ منها سوى شفا رمق،
ولازلت أهواها كما أهوى نفسي،
أشعلتها وحين رأيت أبخرتها
أضرم الحنين نيرانه
كأنه كان ينتظر لحظة الإشارة.

لَـيَـاح

عاد الصباح،
يحملُ ذِكرًا جديدة
تتمثلُ فِي كوب قهوتي،
التي تمحُ مُعانتي،
بدأ الصداع يدُكُ رأسي ،
وصابرةٌ محتسبةٌ على تفكرهُ الذي يجلب المتاعب،
متى ياعقلي ستهدأ؟
وتعلم أن الراحلين رحلوا،
والهاجرين هجروا،
تفكركَ فيمَا قد مضى
لن يجدي نفعًا!
وتذكركَ لهم
لن يُعيدهم!
السراب في الصحراء يجعلُ العطِشَ يَضِلُ الطريق،
وفي الحب
نحن عطشى لمن نُحب،
وحينَ نُهجر
يُصبحُ قلبُنا قاحل،
ونهيم في الأرضِ
باحثين عن الرواء
وهو في داواخلنا إن قنِعنا ورضينا!

هذا نصِيبُكَ من الدُنيا،
أحسن إن لم تجد الإحسان،
فكُلُ ساقٍ سيسقى بما سقى به،
فلا تسقِ الحنظلَ لأنكَ سُقيته
ماذنب الإنسان إن كانت القسوة آذتك؟

واستقر في عمق نفسي
وقرارة روحي
ان قد رأيتك
ولم تعد تصب أمواجك على شاطئي
دككت الحصون
إرتديت الدروع
أستعد إن أعلنت الحرب
أعتذر
لكنني حين أمنتكَ طعنتيني
وحين سلمتكُ مجاديفي كسرتها
وحين أعطيتك سِهامي رميتني بها
فما حاجتي بك إن كُنتَ كعدوي
تدعي أن تجرب السهام علي
وانا من قد اعطاها لك؟

شَالت قَميصها كَي تُدفأني،
وهِي لا تَعلمُ أن النَّظر إليها
يجّمعُ بروحي دِفء الكونِ اجمع!
تلكِ صديقتي،
رَفيقةُ لَحظَاتي،
مُحاطةٌ بوابِلٍ من النِعم،
تأتِي الجّنةُ الأُخرى
فَتقول ما أفعل؟
هَل أكلتِ؟
هل أخذتِ الدواء؟
ألم تَعلمي أنكِ يا رفيقَتي الدواء؟
وملمَسُ يداكِ حين تُضفرين شعري
هو العِلاج؟
الأصدقَاء هُم أطباءُ الأرواح،
وسَكِينة القُلوب،
وأُنس الليالي.

وبعد ماذا؟
بعد ماذا تأتي تعتذر؟
أكان خطأي أنني قابلتك بصدرٍ رحب؟
أكان خطأي أنني قابلتك ببسمة؟
تقابلنني بطعنه!
أهذا جزاء الاحسان؟

تتمنى لي صباحًا مُشرقًا
كيف لي أن أخبرك
أن شروق صباحي بطلعتك؟
وشمسي من وجنتك
وسعادتي في بسمتك.

راحلٌ .. وعَدني بالعودةِ
ولمّ يفِ بوعده.

سأكون هذه المرة
شديدة الصراحة مع احرفي
ومعك ..
أول مرة أقرر فيها ان أفتح صندوق الذكريات
ثم تخرج لي ورقة بتوقيعك
لأذهب إلى رسائلك
وأقرأ ماكتبته بكل هدووء ورقة
تلك الكلمتين
كنت اكافح سنتين لأستخرجها منك
لم أعترف لك بذلك
وكان كبرياؤك يمنعك من ذلك
ان المحبه لا تُذل
وإنما تُخضع القلوب
فلا ذُل لمحبٍ قط!

وتعبث بقلبي الذكريات،
فالشجى يبعث الشجى
وانت لقياك يبعث الهموم
فتتوالى علي
أجزم أنني لم أكره ذكرياتي سوا.معك

رسميتكُ وجفاؤك وهجرك
بعد طول ثقة ومحبة،
وحب وصفاء،
تُحملني فوق طاقتي،
أعلي أن ألبس كل هذه الدروع عند لقياك؟
لا مرحبا ولا اهلا ولا سهلا بك
ولكن بطيفك ماذا اصنع؟

وفجأة
يحدثُ مالم يكن بالحسبان
حين يتناسى المرء
جِبلة الحزن
تاتي القشة
التي تقصم ظهر التناسي والنسيان
فننسى كيف ننسى
ونبكى من أجل أن ننسى!

وحين وقفتُ أطيلُ النظر
على سُلمٍ منهُ كان القمر
أفتشُ بين حنايا السطُور
ولهفاتِ قلبي ولحظِي الوجل
بغيرِ إعتيادٍ وقفتُ أنادي
أيا رُوحي أَين منكَ المفر؟
وتُطرقُ ثم تقُولُ عيونٌ
أما لَحظت مُقلتاكَ المطر؟
أمَا علمت مُهجتاكَ بذاكَ
بأنَ المُحبَ دواهُ النظر؟
وأن الودادَ إذا لم يُقابل
بوصل العيون إنبرى واندثر.

ياقُرة العين...
كيف لي أُناجيكِ؟
يجُرني شوقٌ إليكِ
ويجرِي في شَراييني

ياقُرة العين...
كيف لي أُناجيكِ؟
يجُرني شوقٌ إليكِ
ويجرِي في شَراييني

خاتمة

سَندَع الكَلامَ
إلى الكَلام..
وأنفُسنا إلى
اللقاءات
وأَرواحنَا
لأصوات الأحباب
ونَعلمَ أن الرماد
يمضي إلى الرمَاد
ونحنُ نَمضي
إلى حيثُ شاء الله
بلا وجهة مُحدده.